Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحو العربى بين النظر والتطبيق

ليس هناك علم من العلوم العربية قد نال من العناية الفائقة والمجهود العقلى العميق ما ناله النحو العربى قديما وحديثا ، فمنذ القرن الأول الهجرى الذى بدأت فيه هذه الدراسة إلى أن أُلف أول أثر علمى باق بين أيدينا إلى اليوم وهو «كتاب سيبويه» والمجهودات العلمية تتوالى فى هذا العلم حتى العصر الذى نعيش فيه ، فتضخمت مكتبة النحو العربى وما يحيط به من دراسات تضخما تجاوز الحد المعقول ، وخرجت هذه الدراسة عن الغرض الذى من أجله يُدرس النحو ويتعلم ، وهو خدمة اللغة فى مستوياتها المختلفة قولا وكتابة وقراءة .

هذه ثروة من تراثنا لاشك فى ذلك ، ومجهود يستحق التقدير لاشك فى ذلك أيضا .

لكن هذه العناية التى زادت عن حدّها قد انقلبت إلى ضدّها – كما يقال – فتعقدت مسائل النحو ، وضلت الحقائق الأصيلة بين الخليط الهائل الذى امتلأت به كتبه نتيجة التأثر بأفكار فلسفية ومنطقية دخيلة ، تسربت إليه فى وقت مبكر ، ثم نمت دراستها فيه واستفحلت ، وكانت بطبيعتها صالحة للتشقيق والتفريع واصطراع الآراء حولها ، ووجد الباحثون من النحاة أنفسهم أمام هذه الأفكار الفلسفية الصالحة – كما قلت – للأخذ والرد والمناقشة والجدل ، فخاضوا فيها برفق أولا ... ثم استخدمت البراعة الذهنية الفائقة بعد ذلك فيما يمكن أن نسميه «فلسفة النحو» لا فى النحو نفسه ، وجعلت أبحاث النحو ودراساته تبعد شيئا فشيئا عن الغرض الذى تخدمه ، أو بعبارة أخرى : حدث الفراق بين النحو واللغة ، فدارت الدراسات النحوية – وبخاصة لدى المتأخرين – حول نفسها تستقى مادتها من الذهن لا من اللغة ، ومن الفلسفة العقلية لا من الواقع ، ومن الشواهد المتجمدة لا من بحوث ميدانية قوامها الاستقراء والمتابعة ، ومن المصادرات التى تعتمد على القياس والافتراضات لإخضاع الأمثلة طوعا أو كرها لا من ملاحظة